

تاريخ النشر: 2026/01/31

تاريخ القبول: 2025/05/01

تاريخ الاستلام: 2025/02/18



تغاير مستويات التنغيم القرآني وأثره في انزياح التقرير والاستفهام

محمد عرباوي

Mohamed.arbawi@univ-msila.dz

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة / الجزائر

THE VARIATION IN THE LEVELS OF QURANIC INTONATION AND ITS EFFECT ON THE SHIFT OF THE REPORT AND THE QUESTION

Mohamed Arbaoui

Mohamed.arbawi@univ-msila.dz

Mohamed Boudhief University.Msila/Algeria

مَلِكُ الْجَنَّةِ

سعيًا في هذه الورقة البحثية إلى معالجة إشكالية تغايير مستويات التنغيم الصوتي في القرآن الكريم، وأثر ذلك في انزياح غرضي التقرير والاستفهام، اعتمادًا على آليات المنهج الوصفي، حيث عالجنا هذه الظاهرة الصوتية في آيات مختارة من القرآن الكريم في إطار تداخل علم الأصوات مع علم البلاغة. وتوصلنا إلى زمرة من النتائج أبرزها: انخراط التنغيم ضمن أقوى السياقات الصوتية الخارجية للخطاب التي تجعل المعاني تابعة لها، وإن مقاصد المتكلمين تظهر بحسب مكونات التنغيم الفيزيائية والنطقية، ووفق تغايير مستوياته الصوتية، ويظهر ذلك كثيرًا في تجويد القرآن الكريم، كما أن التنغيم له دور مهم في تحديد الغرض البلاغي للنص القرآني خاصة غرضي التقرير والاستفهام، ولكنه في المقابل له القدرة على إخراج النص من هذين الغرضين إلى أغراض بلاغية أخرى. كلمات مفتاحية: التنغيم القرآني؛ تغايير المستويات؛ الانزياح البلاغي؛ التقرير؛ الاستفهام.

ABSTRACT:

In this research paper, we sought to address the problem of the variation in the levels of vocal intonation in the Holy Quran, and its effect on the shift of the purposes of reporting and interrogation, based on the mechanisms of the descriptive approach, as we addressed this vocal phenomenon in selected verses of the Holy Quran within the framework of the overlap of phonetics with the science of rhetoric, and we reached a group of results, the most prominent of which are: the involvement of intonation within the strongest external phonetic contexts of the discourse that make meanings subordinate to it, and the intentions of speakers appear according to the physical and phonetic components of intonation, and according to the variation in its phonetic levels, and this appears often in the recitation of the Holy Quran, as intonation has an important role in determining the rhetorical purpose of the Quranic text, especially the purposes of reporting and interrogation, but in return it has the ability to take the text out of these two purposes to other rhetorical purposes.

Keywords: Quranic intonation; variation in levels; rhetorical shift; reporting; interrogation.

1. مقدمة:

يعد علم الأصوات من العلوم التي لقيت اهتماما كبيرا لدى الباحثين اللغويين في كل مكان من العالم وفي أي زمان؛ فنحن نجد أنفسنا اليوم أمام مدونات كثيرة في هذا التخصص المعرفي قديمة وحديثة أو عربية وغربية، وبناءً على نظرية تكامل العلوم والتداخل البيئي للمعارف من داخل التخصص اللغوي أو من خارجه، فإننا نتوقع وجود تقاطع بين علم الأصوات وعلم البلاغة العربية، ولعل أبواب هذا التقاطع كثيرة أهمها: الفصاحة، الفصل والوصل، العروض، الفاصلة القرآنية، السجع، التنغيم.

كما أن فهم الخطاب المنطوق يقتضي ربط دلالاته بالسياق الداخلي والخارجي، والسياق الخارجي يتضمن اعتبارات عديدة تتعلق بملاسات النص وظروفه، ومن بينها التنغيم، لذلك فإن دراسة التنغيم من ضرورات دراسة السياق، ويعد علم المعاني في البلاغة العربية من أكثر علومها اهتماما بأثر السياق في إنتاج المعنى.

فالتنغيم من أكثر الأبواب الصوتية ثراء وتداخلا مع المباحث البلاغية، فهو أداة مؤثرة في نفس المتلقي ووجدانه، وظاهرة صوتية موجهة للمعنى وتمتد إلى تحقيق أغراض بلاغية كثيرة في الخطاب على رأسها التقرير والاستفهام. ومن هنا جاءت الفكرة لمعالجة الإشكالية الآتية:

كيف يؤثر تغايير مستويات التنغيم القرآني على انزياح غرضي التقرير والاستفهام؟

حيث نفترض أن التنغيم يتشكل من عدة مكونات وله مستويات صوتية متباينة من شأنها إكساب الخطاب القرآني دلالة خاصة؛ وكذلك يمكنه التأثير في غرضي التقرير والاستفهام وإخراجهما إلى أغراض أخرى.

وهذا الموضوع ليس بجديد، فقد تم التطرق إليه في بعض الدراسات، وأهمها:

1. دراسة الدكتور خالد عبد الرحمن بعنوان: "التنغيم في القراءات المتواترة وأثره في تعدد الدلالات"، الصادرة عن دار القرآن الكريم بدمشق بسوريا، سنة 2017، وفيها قارن الباحث بين قراءتي حفص وورش في آيات قرآنية، من حيث النبرات الصوتية، مما يضيف معاني جديدة مثل الاستفهام الضمني والتقرير.

2. دراسة الدكتورة فاطمة حسن عبد الله بعنوان: "الأثر البلاغي للتنغيم في القرآن الكريم"، الصادرة عن مركز البحوث القرآنية بجامعة الملك سعود بالسعودية، سنة 2018، حيث ربطت الدراسة بين التنغيم الصوتي والمقاصد البلاغية، كتحويل الجمل الخبرية إلى استفهام تقريرية وأشارت إلى أن الانزياح في النبرة يُستخدم للتأكيد على الحقائق الإيمانية عبر أسلوب التحدي.

3. دراسة الدكتورة ليلي محمود بعنوان: "انزياح المعنى في القرآن عبر السياق الصوتي: قراءة في تفاسير الطبري والزمخشري"، الصادرة عن مجلة الدراسات الإسلامية بجامعة بغداد بالعراق، سنة 2019، حيث ناقشت الدراسة كيفية اعتماد المفسرين على التنغيم في تفسير الآيات القرآنية، وأظهرت أن النبرات الاستفهامية حوّلت الكلام إلى معانٍ أخرى بدلاً من الاستفهام الحقيقي.

وما يميز مقالنا عن هذه الدراسات هو عينة الآيات المختارة للدراسة، وكذلك طريقة تناول وأسلوب الشرح، وسنعالج إشكالية بحثنا وفق آليات المنهج الوصفي وعلى رأسها التحليل؛ مستهدفين تحقيق الأهداف الآتية: معرفة معنى التنغيم، وطبيعة وجوده في التراث اللغوي العربي، ومدى تبعية الأصوات للمعاني، ثم بيان مكونات التنغيم، وعلاقة التنغيم بتحديد الغرض البلاغي، وكيف ينتقل التنغيم من إظهار التقرير والإثبات إلى إظهار الاستفهام، ثم قدرته على إخراج دلالة النص القرآني من التقرير والاستفهام إلى أغراض أخرى كثيرة، مما يشي بأهميته في إبراز مقاصد النص، وتفسير قضايا قرآنية من خلال مستوياته اللحنية ووظائفه المختلفة في التعبير عن المعاني.

2. معنى التنغيم

التنغيم مصطلح لساني يقابل لفظ (Intonation)، وقد دخل إلى الدراسات اللغوية العربية المعاصرة عن طريق الدكتور إبراهيم أنيس، الذي سماه: النغمة الموسيقية، وقال: "إن الإنسان حين ينطق بلغته لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات، فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد، تختلف في درجة الصوت وكذلك الكلمات قد تختلف فيها ... ويمكن أن نسمي درجة الصوت بالنغمة الموسيقية". (1985، ص 176).

وهو مصطلح يدلّ على ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام، ويسمّى أيضاً موسيقى الكلام. (بشر، 1986، ص 161)، وهو من الظواهر الصوتية التي تساعد في تحديد المعنى، لأنّ "تغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات. (أنيس، 1984، ص 47).

وعليه؛ فالتنغيم هو التغير في نغمة الصوت أثناء الكلام بالارتفاع أو الانخفاض، ويلعب دوراً حاسماً في نقل المعنى والعواطف في اللغة إلى السامع.

3. التنغيم في التراث العربي

لم يفرد علماء العربية القدامى أبحاثاً متخصصة حول التنغيم، لكن جهودهم لم تخل من إشارات دلالية مبثوثة في بطون كتبهم حول التنغيم، خاصة تلك المتعلقة بدراسة القرآن الكريم وتفسيره؛ لذلك يمكن القول إن التنغيم وُجد في التراث العربي لكن بمسميات أخرى، حيث يقول رمضان عبد التّواب: "ولم يعالج أحد من القدماء شيئاً من التنغيم، ولم يعرفوا كنهه، غير أنّنا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره في الكلام للدلالة على المعاني المختلفة". (1985، ص 106).

ويقول عبد السلام المسدي: "إنّ التنغيم في العربية له وظائف نحوية، لأنّه يفرق بين أسلوب وآخر من أساليب التركيب، ومع هذا فإنه لم يحظَ لدى أجدادنا ببحث مستفيض، أو تطبيق مستند إلى قواعد محددة". (1981، ص 226).

4. تبعية الأصوات للمعاني

إن الأصوات تابعة للمعاني، فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت، انظر مثلاً الآية: (يَحْسِرَةُ عَلَيَّ الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [يس، 29]. فسرّها الإمام الطبري بموقف التحسر على أنفس العباد على ما ضيّعت من أمر الله وفرطت في جنبه تلهفاً في استهزائهم برسول الله، وأن عبارة (يا حسرة على العباد) توافق عبارة (يا ويلاً للعباد). (1994، مج 6، ص 274).

وقُرأت (يا حسرة) أيضاً بالهاء الساكنة (يا حسره) في قراءة شاذة، ويرى (ابن جني) أنّ غاية ذلك هو تقوية المعنى في النفس كون الخطاب في موضع وعظ وتنبيه وإيقاظ وتحذير. (1984، ج 2، ص 210)، حيث إن معاني الاستعظام والتعجب والوعظ تطلبت تنغيماً يتم بإطالة الوقوف على الهاء.

وهذا يتوافق مع تقاليد العرب في الكلام، فهي إذا أخبرت عن الشيء غير معترمة عليه أسرع فيه، ولم تتأنّ على اللفظ المعبر به عنه. (ابن جني، 1984، ج 2، ص 208).

فنسجل هنا عناصر تنغيمية تمثلت في المطل والوقف المتأني عند (الهاء) لغرض الاعتزام عليها في تقديم معنى الاستعظام، فحدث الفصل بين عبارتي (حسرة) و(على العباد) خلافاً للقواعد التركيبية التي تقتضي الوصل بينهما ولا تستحسن الاعتراض أو الوقوف عندها لأن العبارة الثانية هي جار ومجرور متعلقان بالأولى، أو صفة لها وتتم معناها.

5. مكونات التنغيم

عرفنا أن التنغيم هو التغير في درجة نغمة الصوت أثناء الكلام، وبتعبير أوضح هو تلحين صوتي يُسهّم في تحديد المعنى والسياق العاطفي للجملة. لكن هذه الظاهرة تعتمد على تفاعل مكونات فيزيائية وأخرى نطقية على النحو الآتي.

1.5 المكونات الفيزيائية للتنغيم

المكونات الفيزيائية للتنغيم تتمثل في الجهاز التشريحي والجانب المادي البنوي لأعضاء جهاز النطق الذي من شأنه إحداث التنغيم، مثل: الأوتار الصوتية، العضلات الحنجرية، الرئتان، السمع، الدماغ، حيث ينتج عن هذه المكونات الفيزيائية مكونات فيسيولوجية أخرى تتمثل في الجانب العملي والوظائف الحيوية لأعضاء النطق، مثل: توتر الحبال، سرعة التذبذب، زيادة الاهتزاز، ضغط الحنجرة، تمدد الرئتين وتقلصهما، التقاط الذبذبات، الرسالة العصبية، تفسير التردد النغمي، نبين ذلك فيما يلي.

أ- الأوتار الصوتية

يشير كمال بشر في كتابه (علم الأصوات اللغوي) أن العلاقة طردية بين سرعة اهتزاز الوترين الصوتيين ودرجة حدة الصوت، وهي الآلية الأساسية التي تُبنى عليها أنماط التنغيم في الكلام. (1998، ص 145). هذا يعني أن الأساس الفيزيائي لإنتاج نغمة الصوت هو ارتباط تردد الاهتزاز بارتفاع الصوت أو انخفاضه، ودرجة التنغيم تعتمد على سرعة تذبذب الحبال الصوتية في الحنجرة، فكلما زادت سرعة اهتزاز الأوتار الصوتية ارتفعت النغمة، وكلما قلت السرعة انخفضت النغمة.

ب- العضلات الحنجرية

يؤكد أحمد مختار عمر في كتابه (علم اللغة العام) إلى أن التنغيم نتاج تفاعل معقد بين الأعصاب والعضلات المسؤولة عن تحريك الوترين الصوتيين، مما يسمح بتنوع النغمة وفق السياق. (1982، ص 237). بمعنى أن العضلات المرتبطة بالحنجرة تتحكم في طول الأوتار الصوتية وكتلتها وتوترها، مما يؤثر مباشرة على تردد الاهتزاز وسرعته ويُحدد تباين النغمة في العبارة الواحدة.

ج- الرئتان

يُضيف محمد علي الخولي في معجمه أن التنظيم الدقيق لدفق الهواء شرطٌ أساسي للحفاظ على انتظام النغمة وتغييرها أثناء الكلام. (1997، ص 89). فالدكتور هنا يربط بين التنغيم وعملية التنفس الصدري، إذ إن التنظيم العصبي للتنفس يتحكم في ضغط الهواء الخارج من الرئتين عبر الحنجرة، ويحافظ على تدفقه الثابت مما يسمح باستمرار الاهتزاز وانتظام التغيرات النغمية.

د- السمع والدماغ

تنبه عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) بأن الأذن البشرية تلتقط الفروق الدقيقة في النغمة، لكن الدماغ هو من يمنحها دلالاتها وفقاً للعرف اللغوي والثقافي. (1979، ص 102)، فرغم أن التنغيم ظاهرة فيزيائية، إلا أن إدراكه يعتمد على سماع الأذن للأصوات والتقاط ذبذباتها الدقيقة، وإرسالها في شكل رسائل عصبية للدماغ الذي يقوم بتفسير تغيرات التردد النغمي، وتحليل اللغة انطلاقاً من سياقها اللغوي والثقافي، ومن عناصر هذا السياق الفروق الطفيفة في التنغيم، فهو يدرك دلالة الاستفهام لجملته تبدو خبرية انطلاقاً من النغمة الصاعدة مثلاً.

ويتضح من خلال تكامل هذه المكونات الفيزيائية جميعاً أن التنغيم ينتج من نظام معقد يعكس تفاعل عمليات الأعضاء التشريحية كاهتزاز الحبال الصوتية مع العمليات العصبية والإدراكية كالتفاعل بين السمع والدماغ.

2.5 المكونات النطقية للتنغيم

المكونات النطقية للتنغيم هي الأشكال الصوتية التي يحدثها النطق المنغم بغرض التحكم في المعنى ومن هذه المكونات نجد: الإظهار، الوقف، الوصل، السكت، الترسل، الترّم، التطريب، مدّ الصوت، علو الصوت، إشباع المد، نبر المقاطع، تحقيق الهمز، إتمام الحركات، توفية الغنة. ونلاحظ ذلك عند ندبة الميت أو المصاب، فتستعمل فيه أدوات النداء (يا، وا)، لكن ما يخرج عن النداء إلى الندبة هو التنغيم المتشكل نطقياً من (الترّم ومدّ الصوت والتطريب) على سبيل التفجّع والنواح.

يقول ابن يعيش (ت 643 هـ): "اعلم أن المندوب مدعو، ولذلك ذكر مع فصول النداء، لكنّه على سبيل التفجّع، فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنّه لا يستجيب كما تدعو المستغاث به، وإن كان بحيث لا يسمع كأنه تعدّه حاضراً، وأكثر ما يقع في كلام النساء لضعف احتمالهنّ وقلة صبرهنّ، ولما كان مدعوّاً بحيث لا يسمع أتوا في أوّله بـ (يا) أو (وا) لمدّ الصوت، ولما كان يسلك في الندبة والنوح مذهب التطريب زادوا الألف آخراً للترّم". (1987، ج 2، ص 13).

ومثال ذلك قراءة قوله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يُبَيِّئُكَ إِذْكَبَ مَعًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) [هود، 42]، يفسرها الإمام ابن كثير بأن هذه سفينة نوح عليه السلام كانت سائرة بالمؤمنين على وجه الماء بإذن الله عند الطوفان، ونادى نوح ابنه الرابع واسمه (يام)، وكان كافراً، ودعاه أن يؤمن ويركب معهم السفينة ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، لكنه رفض واعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال. (1999، ج 4، ص 322)

مد الألف على النداء (ابناه) على الترتي؛ أي قال له: يا ابناه.. على الندبة، ولو أراد حقيقة الندبة، لم يكن بدّ من أحد الحرفين: يا ابناه أو وابناه، كقولك: وازيداه، ويازيداه. (ابن جني، 1984، ج 1، ص 322-323). فخرج النداء إلى الندبة والحزن والضجر بسبب رفع الصوت ومدّ الحركة.

ومن مكونات التنغيم المدّ؛ فالمدّ هو الذي يفرق بين الخبر والاستخبار، وقدره ألف تامّة بالإجماع، فإن كان بين ألف المدّ حرف مشدّد زيد ألف ليمكّن به من تحقيق الهمزة نحو: أَلْذَاكِرِينَ اللهُ. (السيوطي، 1985، ج 1، ص 98)، فإذا مددت دللت على الاستفهام، أمّا إذا حذفت المدّ فعلى الخبر.

يعني أن التنغيم يقوم بوظيفة تمييزية بين الجمل الإنشائية الاستفهامية والجمل الخبرية عن طريق رفع الصوت ومدّه، والعكس صحيح، فهو يمكّن من قلب المعنى من الخبر إلى الاستفهام. والتنغيم عادة ثلاث مستويات هي: الصاعد والنازل والمستوي، إلا أن ضبطها وتحديدّها في الخطاب المسموع يبقى نسبياً بناءً على خبرة السامع وذوقه الفني ورجاحة عقله. وتظل دراسة مكونات التنغيم الفيزيائية والنطقية مجاًلاً حيويّاً في الصوتيات التجريبية التي تشرك علم الأصوات اللغوي مع علم التشريح والفسولوجيا.

6. علاقة التنغيم بتحديد الغرض البلاغي

مجلة: لغة - كلام، المجلد 12/ العدد: 01 - جانفي (2026)

إن تحديد المعاني لا يعتمد في الحقيقة على البنية السطحية وحدها فقد يكون في البنية العميقة خلافها، ويظهر ذلك في وجود أدوات نحوية وتراكيب ذات دلالة سطحية لكن بالالتفات إلى مجريات سياقها والتنعيم المرافق لها يتحول المسار، باعتبار أن التنعيم قرينة صوتية تكشف عن البنية العميقة القابعة تحت السطح المنطوق ويظهر تأثيرها في تفسير العبارات وأغراضها البلاغية.

فالتنعيم عنصر دلالي كبير يهدي إلى تفسير الجملة تفسيراً صحيحاً. (الأفغاني، 1991، ص 93-94)، ومن الوارد جداً أن يصعب تحديد الغرض من العبارات المكتوبة التي لا يحضر سياقها ممثلاً بالدرجة الأولى في منطوقها بصورة حية وفعلية. ومثال ذلك الخلاف الواقع بين اللغويين في تفسير قوله تعالى: (قَالَ فِيمَا أُغْوِيْنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) [الأعراف، 15]. حيث فسر الإمام القرطبي هذه الآية بأن إبليس أقسم بما أوقع الله في قلبه من الغي وبما خلق فيه من كفر العناد والاستكبار أن يصدّ بني آدم عن الطريق الموصل إلى الجنة، كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به: فيما أهلكني بلعنك إياي وبما خيبتني من رحمتك لأزيّن الباطل لبني آدم حتى يهلكوا ويضلوا ويخيبوا، والإغواء هو الإهلاك والإضلال والإبعاد وإفساد الأمر. (2003، ج 7، ص 174-175).

وقد ذهب بعضهم إلى أنها مصدرية، وأنّ المعنى والتقدير: (أقسم بإغوائك لي لأقعدنّ لهم)، أو بسبب إغوائك لأقعدنّ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن (ما) استفهامية، وإلى أنّ التركيب على الاستفهام والاستئناف، والتقدير بأيّ شيء أغويتني..؟ ثم ابتداء مقسماً، فقال لأقعدنّ.. (أبو حيان، 1993، ج 4، ص 274-275).

ونحن نرى أن التنعيم يظهر بمستوى صوتي ضعيف في التحليل الأول المعبر عن القسم فقط، وأنه عال في التحليل الثاني القائم على الاستفهام ثم الاستئناف بالقسم. ذلك أنّ تنعيم الاستفهام يختلف عن تنعيم الإثبات، وبغياب قرينة التنعيم التي تميّز بين الإثبات والاستفهام؛ يمكن أن يفهم الغرض من الآية السابق وهي مكتوبة فقط على أنه القسم إذا كانت (ما) مصدرية و(الباء) سببية، أو على أنه استفهام إذا كانت (ما) استفهامية.

7. التنعيم وغرض التقرير

يساهم التنعيم في خروج العبارة من غرض التقرير إلى أغراض بلاغية أخرى، وهي كثيرة نورد بعضها تطبيقاً على آيات بينات من الذكر الحكيم، وهذه الأغراض هنا هي: الاستفهام، الأمر، النهي.

1.7 انزياح التقرير إلى الاستفهام

يجوز حذف همزة الاستفهام في الكلام، فيصبح الكلام بلفظ الإخبار، ويدلّ المعنى على الاستفهام. (الفراء، 1955، ج 1، ص 76).

حيث ينزاح التقرير إلى الاستفهام كما في قوله تعالى: (وَإِذْ يُنْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنَّنِي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [البقرة، 123]. قدم الشيخ الطاهر بن عاشور في هذه الآية تفسيراً لغوياً بيانياً طويلاً يمكن تلخيصه في أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام بكلام يمثل أصول الحنيفية وهي أوامر ونواه كثيرة الكلفة، ومنها ذبح ولده وبالمهاجرة بهاجر، فأتى إبراهيم التكليف كاملة مع فورية امتثاله وإتقانه لها، وهذا دليل شدة العزم، فجوزي بالإمامة التي تعني أن رسالته تنفع أمته بطريق التبليغ والهداية، وغيرها من الأمم بطريق الاقتداء، فسأل إبراهيم أن يكون في بعض ذريته الإمامة بأنواعها من رسالة وقُدوة ومُلْك وخلافة وإمارة وقضاء وفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك، غير أن الله تعالى أجابه بأن دعوته ستتحقق إلا في الظالمين، وهم المتصفون بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله والانهماك في المعاصي. فإذا زال ظلمهم نالهم عهد الله، وهو الوعد المؤكد. (1984، مج 1، ج 2، ص 699). وتقدير المعنى بالاستفهام أَوْ مِنْ ذُرِّيَّتِي؟ بنغمة صوتية مستوية فكان الجواب: لا ينال عهدي الظالمين؛ أي إذا كان من ذريتك من هو ظالم فلا يكون إماماً للناس مثلك.

والاستغناء عن الهمزة والارتكاز على التنغيم في الدلالة عن الاستفهام قد وجد فيما يعرف بعصور الاحتجاج قريباً من نشأة الدرس اللغوي عند العرب. (محمد عبدو، 2002، ص 192-193).

وانظر قوله تعالى: (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ) [الشعراء، 21]، يفسرها ابن كثير بأن النبي موسى عليه السلام قال لفرعون أنه لا يفي إحسانك إلي بأن ربّيتني مقابل ما أسأت إلى قومي بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخداماً. (1999، ج 6، ص 137-138). الجملة هنا في ظاهرها خبرية إثباتية تقريرية، ولكنها بالتنغيم إنشائية استفهامية، وتقدير الاستفهام: (أتمنّا علي..؟)، حيث حذفت همزة الاستفهام وتم التعويل على نغمة صوتية مفيدة الاستفهام.

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [التحریم، 01]، ذكر الإمام الطبري هنا أن الله تعالى عاتب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه حرّم على نفسه الحلال الذي أحله الله له، وأنه التمس بتحريمه ذلك مرضاة أزواجه. والغالب أن هذا الحلال هو جاريته مارية مملوكته القبطية، حين حرّمها على نفسه بيمين أنه لا يقربها طالبا بذلك رضا زوجته حفصة بنت عمر، لأنها كانت غارت بأن خلاها الرسول في يومها وفي حجرها. فعوتب في التحريم وأمر بالكفارة في اليمين. (1994، مج 7، ص 325-326).

يُلحظ التقرير؛ عند تقدير المعنى: فأنت يا محمد تحرّم الحلال ابتغاء مرضات أزواجك، غير أن دلالة التنغيم تشير إلى الاستفهام الإنكاري (تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ؟)؛ أي لا تحرّم الحلال مرضاة

أزواجك. (الجوارنة، 2002، ص 41). حيث لا توجد هنا أداة الاستفهام، لكن قد تكون استفهامية إذا نطقت بصورة تناسب الأنماط التنغيمية للجمل الاستفهامية، كرفع الصوت ومده، أو الوقف الجائر والوصل المستحب.

2.7 انزياح التقرير إلى الأمر

قد يخرج التقرير إلى الأمر، فمما جاء خبراً وفيه معنى الأمر ما نقله سيبويه في (باب الحروف التي تنزل بمنزلة الأمر والنهي، لأنّ فيها معنى الأمر والنهي) يقول: ومثل ذلك: (اتّق الله امرؤ، وفعل خيراً يثب عليه)، لأنّ فيه معنى: ليتق الله امرؤ، وليفعل خيراً. (سيبويه، 1984، ج 3، ص 100). لا يكون ذلك إلا بالتنغيم، فهو يقوم بدور دلالي كبير ويساعد في التفسير الصحيح للكلام.

وقد يكون للأمر دلالات أخرى يؤدّيها التنغيم، مثل الفعل (اخرج) قد يكون طلباً محضاً، ويكون زجراً وتوبيخاً، وقد يكون رجاء، فلكلّ غرض صيغة تنغيمية خاصة به، والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة، غير أنّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى. (حسان، 1985، ص 226).

3.7 انزياح التقرير إلى النفي

ينزاح التقرير إلى النفي كما في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَتَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ) [المائدة، 116]. يرى الإمام الرازي أن النصارى أشركوا حين اعتقدوا أن خالق المعجزات هو عيسى وأمه مريم، فجعلوهما إلهين من دون الله. وعبارة (أأنت) هي استفهام على سبيل الإنكار، بمعنى أنت لم تأمر للناس بأن يشركوا بالله. ولم يقل عيسى بأني لم أقل هذا الكلام، بل قال ما يكون لي أن أقول، أي فوض ذلك إلى علم الله المحيط بالكل، لأنّ المقام مقام خضوع وتواضع، ولا يجري مجرى دعوى الطهارة والنزاهة. (ج 12، ص 85).

نلاحظ هنا الهمزة في (أأنت) لم تفد الاستفهام بناءً على التنغيم المستوي المرافق لها، فهي همزة تقريرية دخلت على جملة مثبتة فغيرت معناها إلى النفي بدلاً من التقرير، وخرج غرض التقرير إلى النفي وتقدير المعنى (ما قلت لهم).

وقد يتحول النفي تقريراً إذا لحقته هذه الهمزة أيضاً، مثل قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) [الأعراف، 172]. يفسرها الإمام القرطبي بأن الله تعالى أخذ موثيق من العباد يوم الذر، فعندما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره بيده فاستخرج منه ذريته، وقيل: أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وجعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها. حيث دلهم على توحيدهم وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا

إله غيره؛ فأقروا له بالربوبية وشهد بعضهم على بعض وشهد الملائكة عليهم حتى لا يقولوا غير ذلك. ثم أعادهم في صلب آدم، فقام ذلك مقام الإقرار منهم والإشهاد عليهم؛ فلما ذهل الخلق عن الله ذكرهم بأنبيائه. (2003، ج 7، ص 314-316). وقد دخلت الهمزة التقريرية على النفي (لست) فتحول المعنى إلى تقرير مع مساندة التنغيم المستوي.

8. التنغيم وغرض الاستفهام

تحدّث (برجشت راسر) عن الاستفهام في اللغات السّاميّة، حين قال: "واللغات السّاميّة، لا تعرف تأدية الاستفهام، بترتيب للكلمات خاصّ به أصلاً، فإمّا أن تستغني عن كلّ إشارة إليه إلّا النّعمة، وإمّا أن تستخدم الأدوات، والأوّل موجود فيها كلّها، وهو نادر في العربية الفصيحة. (1982، ص 108). وقد يحتوي الخطاب أداة لفظية تعبر عن غرض واحد، لكن بوجود التنغيم قد يخرج عن غرضه الحقيقي إلى غرض آخر مستلزم، وقد ينزاح أسلوبه إلى أساليب شتى.

فالتنغيم هو الدليل الوحيد في تمييز الجمل الإثباتية عن الاستفهامية في الجمل التي لم تستعمل فيها أداة الاستفهام. (بشر، 1971، ص 25-26)؛ بل إن التنغيم قد يكون في بعض النصوص أهم من وجود الأداة لأن هناك العديد من النماذج التي احتوت على أدوات الاستفهام وهي في الوقت نفسه لم تحكم على تلك النصوص بأنها استفهامية. (بشر، 1979، ص 189).

فجملته: (هذا كتابي) قد تكون إثباتية تقريرية تريد الإخبار فقط، وقد تكون إنشائية استفهامية إذا رافقها تنغيم مناسب، حتى وإن لم تشتمل على أداة استفهام، فالذي يحدد غرضها هو الطريقة التي يتم بها أداء التنغيم الصوتي، فالبحث عن غرض الكلام يقودنا إلى البحث عن مجريات سياقه وكيفيات استعمال المنطوق وتداوله وليس المكتوب.

فعناصر التركيب واحدة ولا تصلح أساساً للتفريق بين الإثبات والاستفهام، بيد أن التنغيم هو ناحية الخلاف الوحيدة بينهما. (حسان، 1985، ص 198)، لأن اختلاف رفع الصوت وخفضه في التركيب الواحد هو الفيصل الحاكم بين المعنيين السابقين.

وقد أحصى البلاغيون الأغراض المجازية للاستفهام فوجدوها تزيد على ثلاثين غرضاً بلاغياً. (مطلوب، 1987، ص 181-194)، يعني أن معنى الاستفهام يمكن أن يخرج إلى أغراض أخرى بحسب التركيب والسياق والتنغيم المستوي أو الصاعد أو النازل.

1.8 انزياح الاستفهام إلى التقرير.

ينزاح الاستفهام إلى التقرير كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان، 1]، يرى الإمام الطبري هنا أن الله جلّ ثناؤه يسأل بـ: (هَلْ أَتَى) ويريد التقرير كأنه قال (قد أتى على الإنسان)، وفي هذا الموضع خبر لا جحد، ويقصد أن آدم عليه السلام كان آخر ما خُلق من الخلق، وقد أتى عليه مدة أربعين عاما وهو جسم مصوّر من طين لم تنفخ فيه الروح بعد، فلم يكن شيئا له نباهة ولا رفعة ولا شرف، إنما كان طينا لازبا وحمأ مسنونا. وقال آخرون: إن الدهر هنا لا حدّ له يوقف عليه، وليس واضحا أنه أتى على الإنسان قبل أن يوجد ويُخلق ويكون شيئا. (1994، ج 7، ص 418). فإذا نظرنا إلى الآية مكتوبة تبدو استفهامية بناء على القرينة اللفظية، وهي أداة الاستفهام، لكن إذا نظرنا إليها في سياق المعنى القرآني أو عرضناها على أسماعنا من أفواه القراء، لم تصبح استفهامية.

رغم وجود أداة الاستفهام (هل) إلا أنها بمعنى (قد). (السيوطي، 1998، ص 507)، فلا تقصد الآية الاستفهام بقدر ما تقصد التقرير والتحقيق والتأكيد والإثبات؛ بسبب غلبة قرينة معنوية وأدائية هي التنعيم، وقد جاء التنعيم هنا مستويا، لا هو بالصاعد ولا بالنازل.

يمكن تمييز الجمل الاستفهامية من الإثباتية اتكاء على التنعيم الصوتي الذي تميزه الأذن الخيرة ويدركه الذوق السليم. (بشر، 1979، ص 189)، فإذا استعملت التنعيم المستوي كان المراد الإخبار والتقرير أما إذا استعملت التنعيم المرتفع كان المراد معنى الاستفهام.

والكلام نفسه ينطبق على قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ أَكْفُورٌ﴾ [سبا، 17]. يذكر الطبري أن هذه الآية نزلت في سياق معاقبة قوم سبا جزاء تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله، فقد أرسل عليهم سيل العرم، حتى هلكت أموالهم، وخربت جناتهم، والاستفهام هنا هو إقرار بأن الكفور يكافأ على جُرمه، بعدم المغفرة والعقاب. (1994، ج 6، ص 216). وهناك عبارات كثيرة تتضمن أداة الاستفهام، لكنها لا تحمل معنى الاستفهام، أو العكس تخلو من أداة الاستفهام، لكن عند استعمالها بالتنعيم يستقبلها السامع على أنها استفهام.

2.8 انزياح الاستفهام إلى التعجب

ينزاح الاستفهام إلى التعجب كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمُْونًا فَأَحْبَابُكُمْ ثُمَّ يُمِينُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة، 27]، قرن الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره هنا إنكار الكفر بالله تعالى بعلل عبادته من بيان ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره، وكل الأطوار الأولية لوجود الإنسان وهي موجودات ميتة ثم بثت فيه الحياة بنفخ الروح فأخذ في الحياة إلى وقت الوضع فما بعده، وكان هذا دليلا كافيا على انفراده تعالى بالإلهية. والله هنا يخاطب المشركين، لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني، والاستفهام هنا يتولد عنه التعجب والإنكار بقرينة، أي إن كفركم مع تلك الحالة لا

تركن إليه النفس الرشيدة لوجود ما يصرف عنه وهو الأحوال المذكورة بعُد، وهذا يقطع معذرة المخاطب ويجعله حقيقاً باللوم والوعيد. (1984، مج 1، ج 2، ص 373).

وتقدير المعنى: "عجباً منكم على أي حال يقع منكم الكفر بالله مع الدلائل الظاهرة على وحدانيته والمعجزات القاهرة على صدق من اختصه برسالاته وقيام الحجج الباهرة على وجوب طاعته وشكر نعمته". (الطربسي، 1960، ص 70).

رغم أن الآية استفهامية إلا أنها نقلت إلينا شعور التعجب من القوم الذين يكفرون بالله رغم أنه هو خالقهم والقادر على إماتهم وإحيائهم وإرجاعهم إليه، والسبب في ذلك هو التنعيم الصاعد المرتفع الذي وجّه السياق نحو استجابة المتلقي للحدث وتفاعله بشعور التعجب الممزوج بالتحضيض على الإيمان بالله وحده وترك الكفر.

3.8 انزياح الاستفهام إلى الاستبعاد

ينزاح الاستفهام إلى الاستبعاد كما في قوله تعالى: ﴿أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرِي وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان، 12]، وتفسيرها عند الإمام الطبري أن الله تعالى هنا يسأل: من أي وجه لهؤلاء المشركين التذكر من بعد نزول البلاء بهم، وقد تولوا عن رسولنا حين جاءهم مدبرين عنه، لا يتذكرون بما يُتلى عليهم من كتابنا، ولا يتعظون بما يعظمهم به من حججنا. (1994، ج 6، ص 545-546). فالآية وظفت الاستفهام بالأداة (أَنِّي) لكن المعنى خرج إلى غرض استبعاد تذكر هؤلاء الناس رغم تبليغهم من طرف رسول مبين، لأن ارتفاع النعمة عبّر عن استبعاد حصول القضية. (السيوطي، 1971، ص 438).

4.8 انزياح الاستفهام إلى الأمر

ينزاح الاستفهام إلى الأمر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدُوَّةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة، 93]، يرى الإمام الرازي في تفسيره أن خطاب هذه الآية موجه للمؤمنين، وهي دالة على تحريم الخمر والميسر من الوجوه الآتية: تصدير الجملة بإنما لحصر رجس عمل الشيطان في أربعة وهي الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، كما قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان تأكيداً لقبحهما، ثم الأمر بوجوب الاجتناب وجعل الاجتناب فلاحاً وبالتالي الارتكاب خيبة، ثم شرح مفسدها في الدنيا والدين، وهي وقوع التعادي والتباغض بين الخلق وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، ثم النهي بالاستفهام وهو أبلغ ما ينتهي به، كأنه قيل: هل أنتم منتهون من هذه الأفعال بعد ذمها وذكر صوارفها من المفاسد والقبايح؟ أم أنتم على ما كنتم عليه حين لم توعظوا بهذه المواعظ. وأمام هذا الأسلوب لا يقدر المخاطب المكلف إلا على الإقرار بوجوب الانتهاء والترك. (1981، ج 12، ص 85).

وتقدير المعنى: (انتهاوا)، فالاستفهام في الآية مرتبط بتنعيم صاعد متساقط يحمل معنى الأمر، يدفع المتلقي باتجاه الانتهاء طاعةً لأمر الله. (السيوطي، 1985، ص 80).

5.8 انزياح الاستفهام إلى التشويق

ينزاح الاستفهام إلى التشويق ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾. [الصف، 10]، يؤكد الإمام الطبري في تفسيره أن الله جلّ ثناؤه بين للمؤمنين في هذه الآية وما بعدها التجارة التي تنجيهم من عذاب جهنم الأليم، وهي الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ثم الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وأن ذلك خيرٌ لهم من تضييع ذلك والتفريط، إن كانوا يعلمون مضارّ الأشياء ومنافعها. (1994، مج 7، ص 288).

والاستفهام واضح في الآية لكن لا يراد منه الجواب بل التشويق، ونستشعر النغمة الممتدة صعوداً، لاستمالة المتلقي إلى الإجابة بنعم، ومن ثمة سماع الرد ومعرفة طبيعة هذه التجارة المنجية من العذاب الأليم، ثم الإقبال عليها بثقة.

6.8 انزياح الاستفهام إلى الوعيد

ينزاح الاستفهام إلى الوعيد كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّيْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ لُكْمٌ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام، 7]، يفصل الإمام الرازي في تفسيره للآية بأن القرن هو القوم الذين يقترون في زمان من الدهر ثم يفترقون بالموت، والله تعالى هنا يعظ المشركين العرب بما حدث للقرون الماضية، كأقوام نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وفرعون، الذين ثبتهم في الأرض وأعطاهم من منافع الدنيا ككثرة العدد وبسطة الأجسام وسعة الأموال وأسباب العز ما لم يعط العرب في مكة، كما أرسل لهم الغيث المتتابع الكثير الدر، وجعل لهم الأنهار والبساتين الكثيرة، ومع ذلك جرى عليهم الكفر، فباعوا الدين بالدنيا فحق عليهم العذاب الشديد. وهذه القصص مشهورة عند العرب، وهي توجب الاعتبار والانتباه بأن الله تعالى لا يتعاضمه أن يهلك قوما بسبب كفرهم، ثم ينشئ مكانهم قوما آخرين يعمرن بلادهم. (1981، ج 12، ص 167-168).

والتقدير: (ألم يعلم هؤلاء الذين يكذبون النبي ما حلّ بالأمم قبلهم من هلاك وتدمير بسبب تكذيبهم وذنوبهم، رغم تمكين الله لهم استدراجاً وإملاءً لهم). فجاء الاستفهام هنا بالهمزة (أ)، أما الأداة (كم) هنا فهي خبرية وليست استفهامية بمعنى (أهلكنا كثيراً)، والغاية هي توجيه الوعيد والتهديد لهؤلاء القوم حتى يقلعوا عن تكذيب النبي، ومن المتوقع أن يرافق الخطاب التنعيم بصوت ممدود مرتفع مع الشدة والحزم.

7.8 انزياح الاستفهام إلى العتاب

يؤدي التنعيم النازل إلى إخراج الاستفهام إلى غرض العتاب، بسبب تأسف المرسل أو تعاطفه، مثل قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة، 43]، يرى الإمام ابن كثير هنا أن الله تعالى عاتب رسول الله عندما أذن لأناس استأذنوه في القعود عن المعركة، ولا يوجد أحسن من هذه المعاتبة لأنها بدأت بالعفو، كأنه يقول: هلاً تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب. (1999، ج 4، ص 159). فهنا جاء التنعيم متمسماً بالنزول ليساعد مجريات السياق ويعبر عن معاتبة البارئ عز وجل خير رسله صلى الله عليه وسلم معاتبة لطيفة هادئة.

8.8 انزياح الاستفهام إلى التمني

قد يستبطن الاستفهام في طياته التمني إذا اقترن بالتنعيم النازل، مثل قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف، 52]، يذكر الإمام القرطبي في تفسير الآية أن الله تعالى يخاطب المكذبين بالكتاب، ويتوعدهم بعواقب فعلهم يوم القيامة بما وعدوا به في القرآن من البعث والحساب والعقاب، وحينها سيعترف الذين نسوه بما جاءت به الرسل من الحق، وسيتساءلون باستفهام فيه معنى تمنى الشفاعة أو العودة للعالم للعلم بغير ما كانوا يعملون، لأنهم لم ينتفعوا بما أنزل لهم من النعم وخسروا حظ أنفسهم منها، وبطل ما كانوا يقولون من أن مع الله إلهاً آخر. (2003، ج 7، ص 217-218).

فالموقف يصور حال المعرضين عن الحق يوم القيامة وهم ينالون جزاءهم، يطلبون الشفاعة وهو يعلمون أنها لا تحقق لهم فجاء طلبهم باستفهام منغم تنغيماً حزيناً نازلاً أخرجهم إلى التمني، ركنوا إليه وعجزوا عن رفع أصواتهم لأن الشيء المطلوب يستحيل أن يُدركوه.

9.8 انزياح الاستفهام إلى الاستبطاء

قد ينزاح الاستفهام إلى الاستبطاء، كما في قوله تعالى على لسان المسلمين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة، 212]، يرى القرطبي في تفسيره أن هذه الآية نزلت تطيباً لقلوب المسلمين حين أصاب ما أصابهم من الجهد والشدة، في غزوة الخندق أو أحد، وقيل تسلياً للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسرى قوم من الأغنياء النفاق، وذكرهم: هل ظننتم أن تدخلوا الجنة

ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم من البلاء فتصبروا كما صبروا، وقد خوفوا وحركوا بشدة، وبلغ الجهد بهم حتى استبطؤوا النصر، فيقولوا متى نصر الله، على طلب استعجال النصر لا على شك وارتياب، فاستدعاهم تعالى إلى الصبر، ووعدهم على ذلك بالنصر القريب. (2003، ج3، ص32-34).

قالوا هذا بعد أن زلزلوا ومستهم البأساء والضراء. (السيوطي، 1971، ص437)، وأصابهم التعب والوصب، حيث تحسروا وتساءلوا عن زمان قدوم النصر من الله، فاستخدمت الأداة (متى) في عبارة مشحونة بنغم نازل ونبرة حزينة وصوت بطيء دلالة على استبطاءهم مجيئه، ورغبتهم في حصوله في أقرب وقت.

10.8 انزياح الاستفهام إلى الإنكار

ينزاح الاستفهام إلى الإنكار كما في قوله تعالى: (أَمَنْ هُوَ قَبْتُ أَنَاءً أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ حَقْلٌ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [الزمر، 10]، يفصل الإمام الطبري هنا بأن (أَمَنْ) قرأت بتخفيف الميم، فيكون الألف فيها بمعنى النداء (يا من هو قانت)، أو معنى الاستفهام (أهذا كالذي جعل الله أندادا ليضلّ عن سبيله)، ثم اكتفى بما قد سبق من فريق الكفر به من أعدائه، إذ كان مفهوما المراد بالكلام. وقرأت (أَمَنْ) بتشديد الميم، بمعنى استفهام اعتراض في الكلام بعد كلام قد مضى (أم من هو؟) ويكون جواب الاستفهام متروكا من أجل أنه قد جرى الخير عن فريق الكفر، وما أعدّ له في الآخرة، ومعناه: هذا أفضل أم هذا؟ والقانت هنا هو القارئ قائما في الصلاة، وقيل الطائع ساعات الليل، أوله، وأوسطه، وآخره. ساجدا أحيانا وأحيانا قائما يحذر عقاب الآخرة، ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة. وهنا لا يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك هم يخطون في عشواء، وأهل العقول والحجج هم الذين يتدبرون هذه الآيات، فيعتبرون ويتعظون. (1994، ج6، ص372-373).

وتوجد أداة الاستفهام (هل) لكن العبارة لا تريد جوابا بنعم أو لا، ولكن يراد بها التقرير وخرجت إلى النفي والإنكار لمسألة الاستواء بين الفريقين العلماء وغير العلماء، ويدرك الملتقي ذلك انطلاقا من النعمة المستوية الهادئة للعبارة التي تميل إلى النزول، مما يساعد على إضفاء الهدوء أمام المنكرين للمسألة، والثقة بأنها مسألة واضحة لا ينكرها العاقل ولا تحتاج إلى أدلة أو براهين.

9. خاتمة

في الأخير يمكن أن نرصد النتائج التالية:

- أدرك العلماء العرب القدامى مسألة التنعيم وأهميتها؛ لكن لم تفرد لها تصانيف أو مباحث خاصة بها، ولم تكن بمصطلح التنعيم وإنما بألفاظ ومفاهيم أخرى مبثوثة في ثنايا كتبهم.

- إنَّ التنغيم أكثر انتشاراً في اللهجات المحكية وفي الخطابات التواصلية الحية بين الناس، وله علاقة مهمة بالموسيقى ولحن الكلام وله أثر كبير في تفسير قضايا بلاغية من خلال إدراج مستوياته ووظائفه المختلفة في التعبير عن بعض المعاني.

- إن علم الأصوات يتداخل مع علم البلاغة في عدة مباحث أبرزها التنغيم، فهو مبحث صوتي بالأساس لكنه يمتد إلى البلاغة العربية وإلى علم المعاني تحديداً، بوصفه عنصر هام من عناصر السياق التي تتكامل لتشكيل دلالة العبارات وبيان أغراض المتكلمين، وحتى الغرض الواحد يمكن أن يخرج إلى أغراض فرعية بسبب التنغيم الصاعد أو النازل أو المستوي مثلما حدث مع الاستفهام.

- ينقل التنغيم العبارات من معانيها البلاغية الأصلية سواء في حالة التقرير أو الاستفهام إلى أغراض بلاغية أخرى، وأكثرها في حالة خروج الاستفهام إلى معانٍ مستلزمة، وهذه الظاهرة لا تقتصر على البلاغة في مسألة الخروج إلى الأغراض البلاغية، بل أصبحت معروفة في تخصصات أخرى في اللسانيات الحديثة المعاصرة كالأسلوبية والتداولية والوظيفية والسيمائية، وتحت مسميات عديدة منها: الاستلزام التخاطبي، الخرق الدلالي، الانزياح اللغوي والأسلوبي.

- إنَّ الإنصات إلى تنغيمات القرآن من أعظم الأسباب إلى إدراك معانيه، فنسأل الله أن يعيننا على ذلك ويُدخلنا برحمته في عباده المهتدين: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [الزمر، 17].

المراجع

*- القرآن الكريم برواية ورش.

- 1- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط 5، 1984.
- 2- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985.
- 3- ابن جني، المحتسب، دار المعارف، القاهرة، 1984.
- 4- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط 2، 1999.
- 5- ابن يعيش موفق الدين بن علي، شرح المفصل، عالم الكتب، مكتبة المتنبّي، القاهرة، 1987.
- 6- أبو حيان الغرناطي الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1993.
- 7- أحمد مختار عمر، علم اللغة العام، عالم المعرفة، الكويت، 1982.
- 8- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987.
- 9- الأفغاني سعيد، في أصول النحو، منشورات جامعة البعث، دمشق، 1991.
- 10- برجشت راسر، التطور النحوي للغة العربية، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، 1982.
- 11- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985.

- 12- تَمَام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1985.
- 13- الرازي أبو عبد الله محمد فخر الدين بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981.
- 14- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1985.
- 15- سيبويه أو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، دار المعارف، القاهرة، 1984.
- 16- السيوطي جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1971.
- 17- السيوطي جلال الدين، الإتيقان في علوم العربية، دار الفكر، القاهرة، 1985.
- 18- السيوطي جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
- 19- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- 20- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1994.
- 21- الطربسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: هشام الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1960.
- 22- عائشة عبد الرحمن، اللغة بين المعيارية والوصفية، دار المعارف القاهرة، 1979.
- 23- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، 1981.
- 24- الفراء، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد على النجار، دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1955.
- 25- فلفل محمد عبدو، اللغة العربية ثوابت ومتغيرات، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2002 م.
- 26- القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423 هـ/ 2003 م.
- 27- كمال بشر، علم الأصوات اللغوي، دار المعارف، القاهرة، 1986. ودار غريب، القاهرة، 1998.
- 28- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1971.
- 29- كمال بشر، علم اللغة العام، القسم الثاني: الأصوات، دار المعارف، القاهرة، 1979.
- 30- محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، 1997.
- 31- يوسف عبد الله الجوارنة، التَّعْنِيم ودلالته في العربيَّة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 369، كانون الثاني، 2002.